الأديب العربي والثورة التكنولوجية

بقلم الدكتور أبو القاسم سعد الله

موضـــوع « الاديب العربي والثـــورة التكنولوجية » هو أهم الموضوعات المقترحة في هذه الدورة من حياة الاتحاد . فلا دراســة الاتجاهات الادبيــة المعاصرة ولا مــوقف الادب العربي مــن الاستعمــار والصهيونية بجديدين في نظري . ونعتقد كما اعتقد الــذين اقترحوا هذا الموضوع ، أن الوقت قد حان للعناية بهذا الجــانب من الادب العربي . ذلك انه وسيلتنا الى معرفة مواقع أقدامنا امام تحديــات العصر . فاذا كان اديب العربي يرود في هذا الطريق فيجب ان نشعــر بالتفاؤل والاطمئنان على المستقبل ، واذا كان الاديب ما يزال يعيش في خيام التراث والميتافيزيقيا الشعرية فيجب علينا ان نتشاءم ونــدق ناقوس الخطر .

وأعتقد ان الذين اقترحوا دراسة الاديب العربي والتكنولوجيــة كانوا يهدفون الى تحسس العلاقة بين العلم والادب ، او بين واقــع العالم الثالث وواقع العالم الاول . ولا شك ان التحديد الزمني لهذا الموضوع (النصف الثاني من القرن العشرين) يعني أشياء كثيرة عند العرب . فخلال العقدين الماضيين شهدت الامة العربية احداثا خطيرة في حياتها من ثورات سياسية ضد الاستعمار والنفوذ الاجنبي وتجارب فاشلة للوحدة الشاملة ، وهزائم متكررة على يد الصهاينة بالاضافــة الى محاولات داخلية للخروج من كابوس التخلف المتمثل في الاقطــاع والامية . وكل هذه الاحداث جعلت عددا من المفكرين العرب وبعض الملاحظين الاجانب ، يحكمون على ان سبب فشلنا في الداخل والخارج هو التخلف التقني وشيوع الخرافات والتقاليد البالية بيننا وضعف الايمان بالعلم . وباختصار كوننا لا نعيش عصرنا . فطرح موضوع الاديب والثورة التكنولوجية في هذا الظرف هو اذن محاولة لمعالجة هــذه المشكلة ودور الاديب ازاءها . ولكن هناك خطرا في معالجة هــذا الموضوع ، ذلك ان العنوان بصيغته الحاليــة يتناول موقف الاديب بالنسبة لقضايا المستقبل في مجتمعه . وهل هذا ممكن ؟ وهل مــن المفروض على الاديب أن يتنبأ بما سيحدث لامتــه في نهاية القرن العشرين ؟ او هو مقيد بثقافته ومحيطه الاجتماعي بحيث لا ينطلق اكثر من مد بصره ؟ ثم هل على الاديب ان يصف ويتناول الحاضر فقط او عليه ان يتمثل تراث حضارته ليخلق منها نماذج المستقبل ؟

هذه بعض الاسئلة التي خطرت لي وانا أقلب هذا الموضوع على وجوهه . ويضاف الى ذلك سؤال آخر هو همزة الوصل : هل ان الامة العربية (أمة الاديب) قد دخلت فعلا عصر التكنولوجية حتى نــدرس العلاقة بين الاديب وبين هذه الظــاهرة التي تعتبر أهم ما أنتجت الحضارة الغربية ؟ ويبدو ان الذين طرحوا الموضوع أعلاه مؤمنون بأن الجواب على ذلك سيكون بالايجاب ، ولم يبق علينا سوى أن نبحث ونقيم دور الاديب ازاء هذه الظاهرة . ومادمت لا اشاطر هؤلاء رأيهم، فاني سأتناول الموضوع على انه « امل » او « حلم » فقط وعلى انه « تخطيط » لمستقبل قد يكون قريبا او بعيدا . ذلك ان الامة العربية اذا ظلت على ما هي ، فلن تدخل في نظري عصر التقنية حتى فــي القرن الواحد والعشرين . تبقى قضية اخرى تحتاج الى جواب واضح، وهي هل من الممكن ان ينتج الاديب « ادبا تخييليا » مثل ما ينتج العلماء « علما تخييليا » ؟

حقا لقد شاهدنا كثيرا من النوع الاخير قد اصبح واقعا كصنع الطيران وغزو الفضاء ، والوصول الى القمر ، ولكن هل في امكان الاديب ان يخطط لمجتمعه بعد ثلاثين سنة مثلا فيتصوره مجتمعا موحدا عقلانيا مبدعا متمتعا مسيطرا على كل المخترعات العلمية مضيفا اليها تجاربه الذاتية ؟ وبعبارة اكثر وضوحا : هل الاديب العربي في النصف الثاني من القرن العشرين اديب واصف أو موجه رائد في البحث عن مستقبل افضل او داعية تغيير في حاضره البائس ؟ من الواضح ان الذين طرحوا هذه المشكلة لم يتوقعوا كل هذه التساؤلات .

ولكي نتمكن من درس هذا الموضوع بشيء من الاستيعاب والعناية التي يحتاجها رأينا ان ندرسه من هذه الزوايا : الاديب امام مشكل التراث ، والمحيط السياسي والاجتماعي للادب ، بوادر الاتجــاه العلمي في المجتمع العربي الحديث ، علاقة الاديب العربي بالتقنية المعاصرة ، ثم الاديب والاتجاه التقني لامته .

ففي الوقت الذي يتحدث فيه أدباء العالم الاول والثاني عــن « عصر ما بعد الحضارة » ما زال الاديب العربي يبحث عن نفسه فــي مجموعة من التقاليد والاساطير والآثار التي نسميها التراث . والواقع ان التراث العربي الاسلامي غني بنفسه وبتجارب الشعوب التــي اعتنقت الحضارة العربية الاسلامية ، ورغم أن العقل العربي يميــل بطبعه الى الشعرية والعاطفية والخطابية فانه انتج ، ولا سيما في مرحلة صحوته الكبيرة روائع علميــة اضاءت لنا نسميه اليــوم العالــم الاول معالم الطريق عندما ابتدأ هذا العالم يكتشف نفسه كما نحاول نحن اليوم ان نكتشف أنفسنا . ولست بحاجة الى التذكير بالاعمال العلمية التي أبدعها عقل الرازي والبيروني وغيرهما . كما انني لست بحاجة الى التذكير بالتفتح الذي قام به هؤلاء وأمثالهم نحو حضارة الاغريق والهند والفرس وهي القضية التي ما زال يحلو لبعض أنصار

التراث التشكيك في فعاليتها .

ثم أعقب ذلك عصر من التدهور والهروب من مواجهة العلم والانكماش السياسي والديني والتقوقع داخل الحدود المعروفة « بدار الجهاد » في مقابل الجبهة الاخرى المعروفة « بدار الحرب » ، فمنذ الحروب الصليبية والعقل العربي في تقهقر مستمر بينما العقل الاوروبي في هجوم مطرد . وزاد الامر سوءا وقوع العرب سياسيا ودينيا تحت طائلة أقوام أشداء في الحرب لكن متخاذلين امام الانتاج الفكري ، ونعني بهم آل عثمان والمماليك ، يضاف اليهم ملوك الطوائف بالاندلس والامارات الانفصالية في المغرب والمشرق . ومنذئذ دخل العقل العربي عصر الشعوذة والخرافات والسحر والقدرية والتصوف وسادت الطرقية والاقطاع .

ولم يكن الادب خلال تلك العصور كلها سوى صورة للمستوى الحضاري في العالم العربي والاسلامي . فعندما ازدهرت العلوم ونقل العرب من حضارات غيرهم وجدنا ادباء عمالقة كالمتنبي والجاحظ وابي تمام . لكن تدهور العرب العلمي و (السياسي) لم ينتج سوى شعراء المدائح النبوية ، وادباء المحسنات البديعية امثال البوصيري وابن الوردي والمقرى . ولقد شاع عندنا في المغرب العربي خلال عهد الانحطاط الحضاري ادب الرحلات والتصوف والميتافيزيقيا ، وسيطرت الطرق الدينية سيطرة كاملة على عقول العامة . بينما سيطر الاجانب على مقاليد السياسة والتجارة والاقتصاد . وانعزل الادب عن وظيفته كمحرك لضمير الامة واصبح في خدمة الحكام للوصول الى منصب او جاه ، او في خدمة شيوخ الطرق .

وعندما واجه العرب اول تحد لهم من العلم الحديث متمثلا في حملة نابليون على الشرق وفي حملة شارل العاشر على الجزائر شعر الرواد منهم بالهوة التي تفصلهم عن ماضيهم ، وكما انتجت النهضة الاوروبية رجالا امثال ليوناردو دفنشي ، وروجي باكون ، وقروشيست، انتجت النهضة العربية رجالا كابن العنابي ، والطهطاوي وحمدان ، خوجة ، وحسن العطار ، وغيرهم ممن اخذوا بالعلم الاروبي فدعوا الى تقليد الاوروبيين في اختراعاتهم للخروج من الظلام الذي كانت امتهم تتخبط فيه . وقد استجاب لهم بعض المسؤولين كمحمد علي بمصر والامير عبد القادر في الجزائر وخير الدين باشا في تونس ، ولكن هؤلاء الدعاة لم يكونوا أدباء بالمعنى التقليدي ، بل كانوا اساسا رجال دين ثم تحولوا الى دعاة تجديد . اما الادباء المجددون فلم يكونوا قد ولدوا بعد . لقد ظلوا ينتظرون حوالي قرن منذ بداية النهضة . ولم يحتضن بعض الادباء قضايا امتهم والتعبير عن آمالها في التقدم العلمي سوى في الفترة الواقعة بين الحربين ، ولكن حتى في هذه الفترة كان الادباء يمثلون طبقة اقطاعية بورجوازية أكثر مما كانوا يعكسون آمال الجماهير ، ذلك أن الاستعمار التقليدي لم يسمح بالثقافة الا لعدد محظوظ من العائلات الكبيرة ، وقليل هم اولئك الادباء الذين جاؤا من عائلات متواضعة . غير انه يلاحظ على هذا العدد القليل انه سرعان ما اندمج في التيار الاجتماعي الذي كان يعتمد على اسس طبقية واضحة .

ونود ان نلاحظ انه خلال هذه المسيرة الطويلة من التراث العربي الاسلامي من جهة وتراث الحضارة الاروبية من جهة أخرى نجد أن العقل كان يسبق العاطفة او بتعبير اكثر دقة ان العلم كان يسبق الادب فلم تزدهر الاداب العربية الاسلامية الا بعد تمثلها للانتاجات العلمية العالمية ،ولم تزدهر المذاهب الادبية الاوروبية الحديثة الا بعد مرور اروبا بثورات علمية على يدي غاليلي ونيوتن وكوبرنيكس ، وباستور وانشتاين واضرابهم ، وقد يكون من محض التكرار القول بان الادب العربي الحديث لم يصل الى المستوى العالمي لانه لايقوم على اسس علمية ، فالمجتمع العربي المعاصر ما يزال لسوء الحظ مجتمعا متخلفا يحكمه الاقطاع والبداوة والامية ، وبالتالي فهو ما زال بعيدا كل البعد عن العلم والتقنية .

ولكن في هذا المجتمع يتحرك الاديب ، وهو اليوم بين ثلاث قوى ضاغطة عليه بعنف ، وهي الاميه نفسه عنه . ومن ثم فتأثيره في هذا المجتمع سيظل محدودا . ان صوت الوعاظ والسياسي وحتى المغني ينفذ الى دواخل الاسرة وطبقات الفلاحين وورشات العمل بينما يظل صوت الاديب في عزلة عن هذه الميادين . فالامية تجعل جمهور الاديب قلة من الناس هم في الواقع غير الجمهور الذي يريد الحديث اليه والتعبير عن تطلعاته ، والقلة المحظوظة ثقافيا والتي قلنا انها اساسا اقطاعية بورجوازية هي التي يمكنها أن تفهم الاديب ولكن مصالحها ومصالحه متعارضة في اغلب الاحيان . وبالاضافه الى ذلك فان (النخبة) التي خلفت الاستعمار لدى شعوب العالم الثالث تعاني من مركبات متعددة ، فهي تعيش عالة على رصيد حضاري مستورد ، وهي مفصولة عن قاعدة الهرم الاجتماعي ، وهي تشن حربا على التعبير الحر والنقد السياسي ، وهي بالتالي تقوم على نظرة ضيقة في أساليب الحكم وتساعد الدكتاتوريين على خنق الحريات واقامة حكم مطلق . والعالم العربي اليوم واقع تحت وطأة هذه الظاهرة من الحكم . فمصادرة الرأي واصدار احكام النفي والسجن وادارة البلاد بدون مراعاة الحد الادنى من النظم السياسية والحريات المدنية ، كلها تجعل الاديب يعيش في دوامة من القلق والغربة والخوف ان ظل ينتج او في كابوس العزلة والنسيان ، ان فضل الصمت .

يضاف الى ذلك ان الاستعمار التقليدي لم يخرج من الوطن العربي حتى ارسى في قلبه قاعدة (اسرائيل) ينقض منها على الحركات التحررية ويراقب التطورات الداخلية في اجزاء هذا الوطن التي قد لا تكون في صالحه . وهذه القاعدة التي يقوم عليها الصهاينة لها مهمة واضحة في الوطن العربي ، فهي تخيف الحكام العرب وتجعلهم يحافظون على كراسيهم ، ويستميتون في المحافظة عليها ، وهي تتدخل لحماية هؤلاء الحكام عند الحاجة ضد اي تيار تقدمي او وحدوي ، وهي تثير الرعب بوسائل العلم الحديثة والتقدم التقني ، فتجعل اي تحرك ضدها أمرا مستحيلا ولا طائل وراءه . والعرب الذين يبررون تنازلهم امام هذه القاعدة بدعوى الخوف من (الحرب الاليكترونية) هم واقعون تحت تأثير هذه الدعاية النفسية الخطيرة . وبدل ان يتجه الحكام العرب والنخبة العربية نحو العمل بنفس الوسائل يفضلون اللف والدوران وتخدير الجماهير باستحالة المواجهة ، وابعادها عن مسرح الاحداث بمسليات بدائية كالتهريج وافلام الجنس .

وللمرء ان يتساءل : هل قام الاديب العربي بدوره نحو القضايا المطروحة على امته اليوم ؟ غير ان الاجابة لن تكون بالجملة . فنحن نرى ان الاديب قد ادى دوره في بعض هذه القضايا مثل الاستعمار والامبريالية والصهيونية . حقيقة اننا قد نختلف على الطريقة والمستوى والعمق التي عالج بها الاديب هذه القضايا ، ولكن الذي لا ينكر هو ان المعالجة اخذت حقها على الاقل من ناحية الكم . اما القضايا الاخرى وهي لا تقل اهمية ، كمحاربة الحكام المنحرفين والدعوة الى العصرنة والتقنية والوقوف ضد الآفات الاجتماعية كالخرافات والامية والطبقية فدور الاديب ازاءها ضعيف .

وما دمنا نتناول هذه الزاوية ـ المحيط الاجتماعي والسياسي ـ فيجب ان نذكر ان هناك اتجاها في الوطن العربي يقف ضد المثقفين . كان الحكام الاقدمون يقربون اليهم « العلماء » ويسترشدون بهم او يشترون رضاهم وصمتهم . اما معظم حكام اليوم ، وهم في الغالب نصف متعلمين او عسكريون بالمهنة ، او مغامرون مدعون ، فانهم يضطهدون الاديب والمثقف عامة ، ويشنون عليه حربا احيانا باسم الانقطاع عن القاعدة ، واحيانا بتهمة استيراد المبادىء ، وتارة يثيرون عليه طبقات الفلاحين والعمال بدعوى انه عنصر مشاغب ، واخرى يحرشون ضده رجال الدين بدعوى انه ملحد او عقلاني ...

* * *

ومن هنا اصبح الاديب يعيش في « استلابية » غريبة ، ولا يكاد يجد له مكانا فعالا في مجتمعه ، وهو يواجه المعوقات في كل مجال ينشده . هذا بالطبع اذا كان صاحب رسالة . فنحن هنا لا نتكلم عن « الادباء » او « المثقفين » الموالين والمداحين . ذلك ان هؤلاء يجدون في نفس المجتمع الحظوة والتمكين ، وحتى المكافاة بالجوائز ونحوها .

غير اننا ندرك ان الاديب العربي يجب ان ينطلق من واقع علمي. وهل هذا الواقع متوفر له ؟ فطالما ظل معظم الحكام العرب يخافون « التقدم العلمي » ويتعوذون من التقنية كما يتعوذون من الشيطان ، لا يمكن للاديب في نظرنا ان ينطلق في الاتجاه الصحيح . ذلك ان وطننا ما زال وطنا زراعيا ! والصناعة لم تدخله الا في شكل بدائي او هي ما تزال في ايدي الاجانب ، اما العلوم المحضة فما يزال تدريسها في بعض الجهات محرما ، وفي بعضها الاخر ما تزال محتشمة ، وفي اخرى تقليدية . فالمحيط الذي يتفاعل فيه الاديب ما زال غير علمي . فكيف نطلب منه ان يكون « علميا » في ادبه ، في لغته وفي تصوراته بينما هو يعيش بيئة تقليدية لا تؤمن بالعلم ولا تتعامل معه ؟.

ولنضرب مثلا على ذلك باللغة ، وهي بدون شك اداة الاديب الفعالة في نقل معارفه ومشاعره الى الاخرين . انها ما زالت تعاني من التحديدات العلمية ، والفقر في الالفاظ المستحدثة . وكثيرا ما يجد العلماء ، والادباء ايضا ، صعوبة في نقل افكارهم باداة واضحة محددة .

حقا ان اللغة العربية قد واجهت هجومات مضادة عنيفة ومغرضة في بعض الاحيان . فقد حاربها الاستعمار ليفرض لغته وحضارته بدلها وهذه وضعية معروفة في المغرب العربي ، ولا سيما في الجزائر . وطعن فيها بعض المستشرقين ليتوصلوا من خلال ذلك الى محاربة القرآن والاسلام عامة . وقد عانت اللغة العربية من عصور طويلة من الانحطاط الفكري والسياسي للامة العربية ، فكانت التركية هي لغة الحكم والدواوين في كثير من البلاد العربية ، بينما برزت اللهجات المحلية في الحياة اليومية في مناطق اخرى . وانحصرت لغة الثقافة في طائفة من انقضاة والمفاتي وشيوخ الطرق وبعض المدرسين والشعراء التقليديين ، وحينما واجه العرب الاستعمار الحديث ثم الاستعمار الجديد والصهيونية وجدوا لغاتهم ما تزال تتخبط في التقاليد وتستمد قوتها من تراث حضاري جيد في ذاته لكنه غير متطور . واصبحت مسايرة الحضارة الحديثة هي شعار العصر . وقام المعارضون للعربية يدعون بانها ليست لغة علم وانما هي لغة ادب وشعر . وانها لغة غنية بالفاظ الابل والصيد والفروسية والغزل . ولكنها فقيرة في الفاظ الطب والصيدلة والفيزيا والكيميا والاختراعات الجديدة . وجاءت المجامع اللغوية لتعالج هذه القضية ، ولكن هذه المؤسسات اللغوية ما تزال بعيدة عن تلبية الحاجة الملحة والمستعجلة التي يواجهها الاديب والمثقف والطالب والاستاذ .

واذكر انه اثناء نقاش عن التعريب في الجزائر قد طرح سؤال محتواه : هل علينا ان نستعمل اللغة ثم نطورها ، او ننتظر اللغة حتى تتطور ثم نستعملها ؟ قد يبدو هذا السؤال ساذجا او غير وجيه. لكن القضية كانت مطروحة بحدة ، وكان على المعنيين ان يجيبوا عليه. فقد كان هناك تياران :

تيار يقول ان اللغة العربية لغة شعر وادب وليست لغة ادارة عصرية وعلوم حديثة تدرس على مستوى الجامعة وتستعمل في الابحاث العلمية . وان علينا « مؤقتا » ان نستعمل لغة اجنبية متطورة في المرحلة الحاضرة ثم نستعمل العربية عندما تصبح هي ايضا لغة علمية . ويدعي اصحاب هذا التيار ان الوقت ليس في صالحنا ، وان علينا ان نتطور بسرعة ، وان العربية على حالتها الراهنة لا تساعدنا على هذا التطور .

ويدعي التيار الثاني ان اللغة كائن حي ، وانها لكي تعيش يجب ان تستعمل ، وان انتظار تطورها يعني قتلا ثانيا لها . فاستعمالها في الجامعة وفي المصنع وفي الادارة كفيل بان يجعلها تتطور بسرعة وتستجيب لحاجة المجتمع . وكان هناك نقاش حاد وحجج متضاربة .

ولكن اصحاب التيار الاخير يؤمنون ايضا بان اللغة لا يمكن ان تنمو منعزلة عن المجتمع . فعلى المجتمع الذي تنمو فيه ان يكون ايضا مجتمعا متطورا فحصر اللغة في الجامعة او في المدارس الثانوية لا يكفي لتطويرها . وعليه فانه اذا لم تدخل الثورة التكنولوجية الى المجتمع العربي (في المصانع والورش والمخابر ومراكز البحث العلمي الخ) فان اللغة العربية ستظل لا محالة لغة الشعور والخطابة وستبقى بعيدة كل البعد عن ميادين العلوم المحضة . ومن هنا اصبح تقدم اللغة مشروطا بالتقدم الاجتماعي . ولكن هل المجتمع العربي اليوم مجتمع متقدم مصنع ؟ طبعا لا ! وماذا يستطيع الاديب ان يفعل ازاء ثورة تكنولوجية موجودة في المجتمعات الاخرى ، لكنها مفقودة في مجتمعه ؟

ولكن الاديب العربي الذي يعاني من الاغتراب والاضطهاد السياسي والاجحاف الاجتماعي يشترك مع ادباء العالم الاول في عدة ظواهر . فالشكوى من العصر وآلاته والاحساس بالاغتراب حتى مع توفر الشروط الحضارية اصبحت ظاهرة شائعة لدى ادباء اوربا وامريكا . فقد قال بعض الباحثين منهم « ان ادباء الغرب يشكون من احساسهم بالضياع عندما يكتبون قصه . فهم يعيشون بمشاعر معزولة ويحسون انهم محكوم عليهم ان يعيشوا ايضا في مناطق معزولة (كالقرى والمدن الصغيرة) او على هامش المدن الكبرى « وكلنا يعرف الثورة المعروفة باسم « الداديزم » او رفض كل شيء على اساس انه مستعمل وقديم ومعروف . فهي ظاهرة الرفض لوحشية الحضارة اليه التي جعلت الاديب يعيش غربة قاتلة واحساسا خانقا بالعزلة . ولكن الاديب العربي ، ولا سيما اديب ما بعد الخامس من جوان (حزيران) ١٩٦٧، لم يصل الى هذه الدرجة من الرفض ، غير انه يعاني هو الاخر عزلة من نوع آخر . بل لعله على الضد من ادباء الغرب اصبح يطالب بالدخول في عصر الآلة والالتجاء الى وحشية الحضارة لحل مشاكل امته الكثيرة . فهو يعلم مثلا ان تلك الهزيمة لم تحل بامته الا لانها كانت انسية اكثر مما ينبغي .

وهناك تيار في الوطن العربي يرفض التقنية بدعوى انها غير انسانية او بدعوى انها مستوردة . ويعتمد اصحاب هذا التيار على هبوط الاخلاق في المجتمعات المتحضرة ويستشهدون ايضا بضياع الشباب والادباء والفنانين في هذه المجتمعات . كما يستشهدون بمقالات وابحاث تندد بما وصلت اليه الحضارة الغربية من عنف ولا اخلاقية . ومقياس هؤلاء آراء شبنغلر في كتابه (تدهور الحضارة) وبعض آراء المؤرخ توينبي وغيرهما . غير ان هؤلاء ينسون ان شبنغلر وتوينبي وغيرهما لا يرفضون الحضارة في حد ذاتها . ولكنهم يرفضون بعض مظاهرها الدنيا ، ثم يحذرون مواطنيهم من مغبة ما هم صائرون اليه اذا لم يحافظوا على القيمة الاخلاقية للحضارة . فالغرب الذين يرفضون التعصر والتقنية استنادا الى هذه الدعاوي يخادعون انفسهم، لانه لا احد من مفكري الغرب قد رفض الحضارة كظاهرة من ظواهر تطور الفكر الانساني ، اذا استثنينا طبعا بعض الفوضويين ودعاة البدائية .

واذا كان هذا هو وضع الاديب العربي امام تراثه العلمي وامام مشاكل عصره وواقع امته ، فماذا سيكون موقفه نحو مستقبل هذه المشاكل ؟ هذا هو السؤال الذي سنحاول ان نجيب عنه بشيء من الايجاز . وقبل كل شيء سنقسم هذا الجزء من البحث الى شطرين : شطر يخص الاديب نفسه وشطر يخص مجتمعه .

ونبدأ بالشطر الذي يهم مجتمع الاديب . فالاديب لا يمكنه ان

ينتج الا اذا توفرت بعض الشروط الموضوعية ، ولعله من نافله القول ان نكرر بان اول شرط هو توفر الحرية المطلقة للاديب . فكل قيد على حريته ، مهما كان شكله ، في القول وفي الرأي وفي الكتابة وفي التنقل هو هدم لتقيم التي نطالب الاديب على اساسها بالانتاج المساير لعصر الثورة التكنولوجية . واذا كانت المطالبة بالحرية قضية قديمة فانها في النصف الثاني من القرن العشرين قضية مستعجلة واكيدة . ويتصل بالحرية تحقيق الديموقراطية الاجتماعية والسياسية . فالحضانة الحقيقية للاديب وغيره من المواطنين توجد في النظام الديموقراطي . ومن الاسف ان معظم النظم العربية المعاصرة تطبق انواعا اخرى من اشكال الحكم باستثناء الديموقراطية . وتفاعل الاديب مع قضايا العصر والمجتمع في حاجة الى مشاركة جميع العناصر الاجتماعية في الوطن العربي ، ولكن ذلك لا يمكن ان يتحقق الا في جو من التفاعل العام الذي هو معنى الديموقراطية .

ولكي تتحقق الديموقراطية والحرية ، لا بد من القضاء على الاقطاع . ان هذه الظاهرة تشكل عقبة كاداء في طريق التطور والتقدم. ومن المعروف ان المجتمعات الاوروبية المتطورة اليوم لم تصل الى ما هي عليه الا بعد ثورات دموية (فرنسا ، روسيا) للتخلص من الاقطاع وفتح عهد جديد من العلاقات الاجتماعية . وكذلك فعلت اليابان عندما عزمت على دخول عصر التصنيع والتقنية . بل وكذلك تفعل الصين اليوم . حقا ان بعض البلاد العربية قد اتخذت خطوات في هذا السبيل ، ولكنها ما زالت تمر بمرحلة الخطر التي لن تسلم من الهزات وربما النكسات . ودور الاديب في عدم الاقطاع لا يقل اهمية عن دور العامل والفلاح . بل ربما فاقهما نظرا للوعي الذي يتمتع به دونهما .

ويتصل بهذه النقطة نشر التعليم في جميع مراحله ، وجعله ديموقراطيا يعم سائر طبقات الشعب وبفتح المجال امام المواهب الخفية ، ويجب الالحاح هنا على تعليم المرأة ايضا . فالمجتمع العربي في عصر التقدم العلمي الباهر لم يعد يستطيع الاستغناء عن مشاركة المرأة في القطاعات الحيوية . ونعتقد انه قد مضى ذلك الزمن الذي كانت فيه المرأة مجرد موضوع للاديب فيها يتغزل وبها يلهو وينتهي دورها عنده وعند مواطنيه بانطباق اربعة جدران عليها . فاديب الثورة التكنولوجية عليه ان يغير نظرته الى المرأة فيعتبرها رفيقة له في طريق التقدم الاجتماعي بدل اعتبارها اداة للهو والمجون .

واذا كانت المدرسة الجديدة هي التي ستخلق لنا الاديب الجديد ، فان الجامعة هي التي تكوّن هذا الاديب تكوينا ادبيا وعلميا في نفس الوقت . وقد يكون في هذا القول بعض التناقض لان الجمع بين العلم والادب يكاد يكون مرفوضا عند الذين ما يزالون ينظرون الى الاديب على انه الشخص الذي لا يخضع لقواعد علمية او منطقية . غير اننا نطالب بضرورة التكوين العلمي للاديب ايضا بجعله يخضع للعقل الرياضي اذا صح التعبير . اليس هو الذي سيصف لنا المصنع والمخبر والطائرات والحافلات ، والدبابات ، والغواصات ، وسفن الفضاء وخارطة القمر في روايات وقصص ومسرحيات ، واشعار؟ حقا ان هذا يدخلنا في الحديث عن ثقافة الاديب المعاصر ، وهو حديث طويل وجدلي ولكن حسبنا هنا ان نؤكد ان « الثقافة العلمية » للاديب اصبحت لا غنى له عنها ، وانها من مستلزمات هذا العهد الجديد الذي نتحدث عنه ، وهو عهد الثورة التكنولوجية .

والحديث عن الجامعة حديث ، كما يقال ، ذو شجون . فهناك عدد ضخم من الجامعات العربية ، بعضها حديث العهد وبعضها قديم نسبيا تجاوز عمره الخمسين سنة . ولكن هذه الجامعات التي كنا نتوقع منها ان تكون مراكز للبحث العلمي المحض الذي يفتح امام المجتمع العربي مجالات الذرة ، والفضاء والتقنية بمختلف عناصرها ما زالت في الواقع دون المستوى ، بل لعلها لا تشعر بهذه الحاجة القومية . ان كثيرا من جامعاتنا تمنح الشهادات بالمجان ، وتكون اطارات غير ذات كفاءة ، وتعتمد التعليم المجرد والدروس النظرية وحشو امخاخ الطلاب بمواد مملاة للحفظ الاعمى لا ملقاة للتأمل والتطبيق ، وهي ما تزال عالة في اساتذتها وادواتها وحتى في لغتها على الاجانب ، وكثير من اساتذتها العرب قد تكونوا « بسرعة » في جامعات اجنبية وعادوا بالقاب ضخمة ولكن بمحتوى فارغ . لذلك فان كثيرا منهم قد توقفوا عن الانتاج منذ ان دخلوا الحرم الجامعي ، بينما المفروض ان يكون دخولهم لهذا الحرم نقطة الانطلاق في الانتاج المنظم الهادف الخلاق، حقا ان هناك ظروفا تخرج عن طاقاتهم كانعدام الوسائل وضعف المقابل المادي ، وقلة الاهتمام بالابحاث العلمية في مجتمعاتنا ، ولكن المسؤولية ستظل بالدرجة الاولى على عاتق هؤلاء ، وقد يتساءل البعض عن دور الاديب في هذا كله ، لكن الواقع انه هو انتاج هذه البيئة التي عليه ان يشارك في تغييرها لصالحه وبالتالي لصالح الجميع .

وتستطيع أجهزة الاعلام ان تلعب دورا هاما في خلق المناخ العلمي في المجتمع العربي ، وهو المناخ الذي سيتفاعل معه اديب الثورة التكنولوجية ، فالتلفزة والافلام والاذاعة والصحافة وغيرها أصبحت وسائل مباشرة لنقل المعارف وبث التوعية لدى الجماهير وازالة الحواجز بين اللغات والثقافات المعاصرة . وهي في الواقع تمهد الطريق لاتصال الاديب مع جمهوره ، لا سيما اذا اعتبرنا شركات النشر والتوزيع الحديثة من وسائل الاعلام ايضا . حقا ان بعضهم قد رأى مهمة الاديب الحق تتمثل في دفاعه عن « الثقافة ضد بربرية وسائل الاعلام الحديثة » . ولكن الواقع ان هذا يصدق على اديب الغرب الذي وصل مجتمعه حد التخمة العلمية وسيطرت عنده وسائل الاعلام (والاعلانات ايضا) سيطرة مخيفة على العقلية العامة . اما الاديب العربي فما تزال وسائل الاعلام في وطنه ، رغم تقدمها ، متخلفة وهي أداة نقل لا أداة خلق . وعلى كل فنحن نعتقد انها تقوم في هذه المرحلة بخدمات جلى للاديب نفسه وتوصيل صوته الى الجمهور .

ولكي نخلق هذا الجو العلمي في الوطن العربي علينا ان نهتم بعدة اشياء اخرى كالترجمة . ونعني بالترجمة هنا ترجمة الكتب والآثار العلمية بدل الادبية . فاهتمام مترجمينا حتى الآن ينصب على الكتب الادبية من روايات وقصص ونحوها ، او على الكتب السياسية والاجتماعية ذات الطابع المثير كالثورات وأدوار بعض الشخصيات المغامرة ، او على الكتب الجنسية والبوليسية الخ .. حقا ان بعض الجامعات تلجأ الى الترجمة ، وهي تلك التي بدأت تجربة التعريب ، ولكن معظم جامعاتنا ما زالت تدرّس بلغات أجنبية بطريقة مباشرة . ونعتقد ان وضع برنامج لترجمة أهم الكتب العلمية التي تصدر في الدول المتقدمة ولنضف اليها ما يسمى بالقصص العلمية المتخيلة ، سيحدث ثورة فكرية في الوطن العربي ، وستكون هذه الثورة مادة خصبة يستغلها الاديب وتجعله يغير من مقاييسه التقليدية.

وهناك نقطتان متصلتان بهذا الموضوع هما اصدار المجلات المتخصصة في العلوم والاختراعات الحديثة ، وفتح حوار متصل مع الثقافات الاجنبية . انني لا أنكر هنا الجهود التي تبذلها بعض الجهات في نشر مجلات علمية ، لكني على يقين من ان هذه الجهات نفسها لا تنكر أن ما تقوم به يعتبر جهدا « متواضعا » جدا ، وانه ليس في مستوى المرحلة التي نريد دخولها ، والتي نطلب من الاديب ان يتمثلها. ودعني أطلب هنا من المجلات الادبية نفسها ان تصدر أعدادا خاصة بالموضوع الذي نتناوله وهو الاديب والثورة التكنولوجية ، انها بلا شك ستساهم بذلك في احداث حركة تنوير عامة ، وفي اشعار الاديب بأن هناك قضايا اخرى عالمية تشغل أذهان قرائه . اما الحوار

مع الثقافات الاخرى فيفتح أمام الاديب مجالات بكرا وتخرجه من العزلة التي يفرضها بعضهم عليه باسم التراث وباسم الخوف على « عقله الصغير » من مرض الايديولوجيات الاجنبية ، ونحو ذلك .

ولكن اكبر عمل يمكن ان يتحقق ويثري تجربة الاديب العربي ، ويفتح امامه آفاقا لا حدود لها في المستقبل هو تحقيق الوحدة العربية. ان الادباء سيظلون في نظري أسرى الاقليمية وأسرى النظم السياسية ذات النظرة الضيقة ، واسرى الدكتاتوريات التي يساندها الاقطاع والخرافات الدينية ، ما لم تتحقق الوحدة الشاملة للوطن العربي. وبالاضافة الى ذلك فان هناك امكانيات ضخمة بشرية وطبيعية واقتصادية ستجعل الثورة التكنولوجية في بلادنا لا حلما نسعى لتحقيقه ، ولكن تجربة نمارسها ونعايشها . ولذلك فان دور الاديب في العمل على تحقيق الوحدة يجب ان لا يقل عن دوره في العمل على تحقيق التقنية والنهوض بأمته صناعيا . ويجب ان نحذر بأن كل محاولات التقنية ستظل جزئيه وقليلة انفعالية ما لم تكن في ظل وحدة عربية شاملة .

ولعله أصبح من الواضح بعد ما سبق ان الاديب ليس هو الذي يخلق التقنية ، ولكنه هو الذي يهيىء الجو لسيادتها وتحبيب الناس فيها ، فالاديب هو انتاج التقنية وليس منتجا لها ، ورسالته تتمثل في نظري في التبشير لهذا العصر الذي تسود فيه الوسائل العلمية الحديثة وتصبح امته فيه تسيطر على قوى الطبيعة بقوى العقل ، وتساهم مع الركب المتحضر في دفع عجلة التقدم الانساني .

واكبر خدمة يقدمها الاديب لامته في عصر التقنية هي حربه ضد الشعوذة والخرافات ، والقدرية والتواكل وغيرها من مظاهر التخلف، فقد مكنت القرون السابقة الى هذه العناصر الهدامة ، واصبح الفرد العربي خلالها لا يؤمن بنفسه وتكن بقوى خارقة وغيبيات وميتافيزيقيات ، وزاد الاستعمار الحديث هذه العناصر تمكينا لانها تساعد على الاستغلال المطلق لخيرات الشعب . والادهى هو ان بعض النظم العربية المعاصرة ما زالت تبقي على هذه العناصر الخطيرة لا ايمانا بها ، ولكن لانها تنوم الشعب وتلهيه عن قضاياه المصيرية . وأعتقد ان مهمة الاديب هنا على جانب كبير من الخطورة . فلكي ندخل عصر التقنية لا بد من محاربة هذه الآفات عن طريق الادب ، وذلك بخلق أدب عقلاني هادف متفتح .

وهناك آفات أخرى تتعلق بالادب نفسه . فادبنا ما زال يئن تحت وطأة الخيام والصحارى والفردية وغيرها من مظاهر البداوة . كما انه لم يتحرر من روح الخلاعة والمجون ، وهي ايضا تقاليد موروثة عن العصور التي ساد فيها الانحطاط السياسي والاجتماعي وسادت فيها حضارات أخرى غير الحضارة العربية الحقة . والاديب اليوم مطالب بالثورة على هذه الظواهر الدنيا في مجتمعنا واستبدالها بطاقات خيرة جديدة تتيح للعقل العربي ان ينمو وينطلق في مجالات الانتاج الحضاري القائمة على المشاركة والجماعية والايجابية . والشعوب التي ابتليت بالاستعمار المباشر ، تدرك ان مفكريه (الاستعمار) قد وضعوا كل امكانياتهم المادية والمعنوية لتفتيت الطاقة البشرية بوسائل اللهو والخلاعة والكحول ، والعزلة في الجبال والفيافي ، وتشجيع الخلافات والقبليات والمطامح الشخصية ، ولا نعتقد ان اعداء الامة العربية قد انتهوا . فما نشاهده في مجتمعاتنا من روح الاستسلام والخوف ومن الافلام والمجلات المنحطة ، ومن حيرة شبابنا وقلقهم ، ومن توجيه نحو النظريات والبيزنطيات والابتعاد عن العلوم الحية والعملية ، كلها في نظري مظاهر لتدخل أعدائنا غير المباشر في حياتنا اليومية ، ولذلك فان رسالة الاديب العربي في محاربة ما أسميناه بالخلاعة والقدرية وغيرها ، تكتسي أهمية خاصة في وقت نطمح فيه الى النهوض على اساس علمي سليم .

وبعد فان موضوع « الاديب والثورة التكنولوجية » يعتبر في نظري قد جاء في الوقت المناسب ، بل لعله قد تأخر عن وقته . فقد كان علينا أن نعالجه ونهتم بأبعاده القومية والدولية منذ أمد طويل وها نحن نشاهد اليوم أجهزة التعبير في العالم المتقدم تتحدث عن القرن الواحد والعشرين ومواجهة مشاكله العقلية والعاطفية للانسان. وما زلنا نحن نهتم ببقية القرن العشرين ، وربما لم نكن على استعداد لمواجهة هذه المرحلة من جميع الوجوه . ذلك ان الشعور بأهمية هذه المرحله لا يكفي ، ونعتقد ان امكانيات الامة العربية لم تستغل كلها بعد في هذا الاتجاه ـ الاتجاه العلمي . كما نعتقد ان الاديب العربي ، رغم ما يعانيه من اضطهاد وعزلة ، ما زال بعيدا عن تلبية حاجيات هذه المرحله ، لا في روحه ولا في تعابيره ولا في ثقافته الاساسية .

ولكن هذا لا يمنعنا في الختام من أن نركز على بعض النقط واولها ان الفكر العربي عامه والادب خاصة ما زال دون مستوى الثورة التكنولوجية .

وثانيها ان المجتمع العربي ما زال يعاني من مخلفات الماضي وقيود الحاضر ولم يواجه بعد عصر التقنية بجد رغم الهزات التي عرفها ، بل الهزائم التي جربها في اكثر من مناسبة . وهذا راجع الى ضعف العقلية العلميه لدى قادة الرأي في الوطن العربي وبالتالي ضعف الوعي بالعصر لدى الجماهير .

وثالثها أنه لكي نطالب الاديب بانتاج يواكب حاجات النصف الثاني من القرن العشرين علينا ان نطالب الاجهزة الاخرى في الوطن العربي بتطوير اللغة حتى تصبح لغة علمية ، وتوفير وسائل البحث العلمي في مستوى الجامعات وغيرها ، ورفع القيود على الرأي والتعبير فلا يمكن ان يبدأ الاديب ثورة تقنية ولكن عليه أن يتمثلها .

ورابعها اننا نعتقد ان أهم حادث يساعد على دخول العربي عصر التقنية هو تحقيق الوحدة الشاملة . فالى جانب الضعف الذي نتسم به الاقاليم العربية متفرقة ، هناك تفاوت في مستوى التقدم الحضاري ، ولكن تحقيق الوحدة العربية سيجعل من ذلك الضعف قوة وسيجعل التفاوت الحضاري تكاملا في سبيل النهضة العلمية ، وسأظل متشائما نحو مصير التقنية (التي هي مظهر من مظاهر القوة) في بلادنا اذا ظلت الاوضاع فيها على النحو الذي نشاهده من التنافر والتشتت والضعف .

وأحسب اننا في غنى عن الدخول في متاهات فلسفيه عن اثر التقنية على الانسان . ان بعضهم يتخوف من أن التقنية ستذهب بالايمان وتفتح المجال امام سيادة العقل وحده . وبعضهم يتخوف من أن الانسان قد أصبح آلة في البلدان التي نسميها متقدمة ، وانه قد أصبح شقيا اكثر منه سعيداً بدل ان يحدث العكس ، نتيجة التقدم الآلي ، بل ان آخرين يحذرون من أن الدخول في عصر التقنية سيجعل الشعوب تتخلى عن خصائصها القومية ، وتتجه نحو التفكير العالمي الذي يهم الانسان أينما كان . وهناك آخرون يثيرون قضية طغيان العلم على الادب وطغيان المادة على الروح (الدين) ، غير اننا اذ نذكر ان هذه التخوفات يجب أن لا نوليها أهمية كبيرة لانها صادرة عن قوم بلغوا شأوا عظيما في الحضارة وأصبحوا يتحسسون مواقع أقدامهم ازاء دوي المدافع ورجات التجارب الذرية فاستبد بهم الخوف من الحرب العالمية الثالثة وتخريب الانسان لمنتجاته الحضارية . اما نحن فما نزال في الواقع حقل تجارب لهؤلاء المتخوفين من التقدم العلمي . لذلك فليس علينا من حرج ان نرحب بالتقدم العلمي وان ندعو كل العناصر الحية في الوطن العربي ، وعلى رأسهم الاديب ، الى تبني هذا الموقف انقاذاً لامتهم من براثن التخلف والعمل على جعل وطنهم لا حقل تجارب علمية لغيرهم ولكن مصنع انتاج حضاري لانفسهم ولاطفالهم .

الجزائر — **أبو القاسم سعد الله**